انكلترا

من مراسل « الآداب » شفيق مقار

الكوكب الخرافي

من الذكريات التي لا تمحّي ذكرى فيلم رسوم متحركة لوالت ديزني اسمه « فانتازيا » زاوج فيه ذلك الفنان بين فنون التصوير والسينما والموسيقى ، فتوصل الى خلق عمل فني ما زالت حية في النفس منه ، منذ مطلع الخمسينيات فيما نظن ، تجربة التعبير عن لحن من الموسيقى البحتة بالخطوط والالوان ، وتجربة اخراج لحن مسورسكي ، « ليلة على الجبل الاجرد » بأسلوب « الكارتون » .

ولعل تلبث تلك الخبرة (التي بدت في وقتها انكشافا مبهرا) بعض السبب في الانسحار بتجربة مماثلة جديدة هي فيلم « الكوكب الخرافي » الفرنسي ـ التشيكي الذي حصل على جائزة امتياز خاصة بمهرجان « كان » ، ووصف بانه « فيلم من أفلام الخرافة العلمية بالرسوم المتحركة» ، وما زالت تعرضه سينما الأوديون بسانت مارتينزلين منذ شهور .

وقد تعاون في انتاج الفيلم واخراجه وكتابته واعداد موسيقاه عدد من الفنانين يبدو من النجاح الذي حققه فيلمهم في فرنسا وبريطانيا انهم وضعوا ايديهم على وسيط جديد للامتاع النظيف يحول استخدامات الرسوم المتحركة من مجال افلام الاطفال وافلام الاعلان الى سينما البالغين .

وقصة الفيلم مألوفة لهواة ذلك النوع الادبي الجديد : قصة الخرافة العلمية ، لكن الناجح حقا اسلوب المعالجة والتلاحم بين الموسيقى والرسوم .

يحكي الفيلم قصة مستعمرة بشرية تعيش « تحت الارض » على كوكب يعمره جنس من مخلوقات راقية عملاقة تشبه البشر شكلا لكنها تختلف عنهم حجما ، في كل شيء . ويقتني بعض صغار تلك المخلوقات اطفال البشر « المستأنسين » كما يقتني الاطفال الآن القطط والكلاب. فالبشر الذين نحن منهم ، واسمهم في الفيلم « الهوم » من لفظة homme الفرنسية ، بمعنى انسان ، يمثلون الطرف المتخلف في ذلك الموقف الدرامي ، بينما يمثل العمالقة زرق اللون ذوو العيون الضخمة والانفة الكبيرة ، الذين يستطيعون التحليق في الهواء والطيران بقوة الفكر و « التأمل » ويدعون في الفيلم « الجورم » ، يمثلون الطرف الاقوى المسيطر المتقدم . وبطبيعة الحال فان الثراء العلمي والتقني يمثل العنصر الاساسي في ذلك التقدم . فالجورم قوم متحضرون ، لا تراهم مجتمعين الا في حلقة علم او مجلس شورى يتعلق بسياسة شئون حياتهم ، وهم يلقنون صغارهم كل حصيلتهم الضخمة من المعارف من سن مبكرة ، لا في المدارس ، بل كما يغلب ان يصبح التعليم في المستقبل : عن طريق جهاز ناطق اليكتروني يوضع حول الرأس ويتلقى منه لابسه سيلا متواصلا من المعارف في مختلف الفنون والفلسفات والعلوم . وفي حلقات الدرس (الاكاديميات التي يؤمها الكبار من المتخصصين لمناقشة مختلف المشكلات النظرية والتطبيقية) تستخدم شاشات تليفيزيونية ضخمة تظهر عليها صورة المتحدث وصور تجسد موضوع المناقشة او الحديث . وسياسيا ، يبدو أولئك « الجورم » اقرب الى المجتمع « الديموقراطي » المعاصر ، يسوس امورهم « رئيس وزراء » ومجلس شورى ، ولا شيء غير ذلك ، اللهم الا العلماء الذين يلوذ بهم المجتمع في الازمات . وبوجه عام يبدو مجتمعهم اشبه بيوتوبيا مستقبلية مبهرة .. وسعيدة بحق .

غير ان جسد ذلك المجتمع تسرح فيه الحشرات المزعجة : « الهوم » المتخلفون الذين يقتني الجورم بعض صغارهم كحيوانات اليفة، وعندما تكبر تلك الحيوانات يأخذونها من صغارهم ويستخدمونها فيما نستخدم فيه الكلاب الآن ، خاصة في القنص ، عندما يخرجون لصيد « الهوم » المتوحشين الذين يعيشون مختفين في جذوع بعض الاشجار الضخمة بعيداً عن العمران ، ويغيرون بين الحين والحين على مخازن الجورم ويسرقون الطعام . والجورم ، بوجه عام ، منقسمون في شان الهوم قسمين : احدهما يرى ابادة تلك المخلوقات المتخلفة الضارة والتخلص مرة واحدة من قذارتها واذاها ، والقسم الآخر لا يرى ان تلك المخلوقات تستحق حتى عناء ذلك . ولما كان مجتمع الجورم قائما على التوازن ، فان العرف جرى على القيام بحملات ابادة جزئية على مستعمرات الهوم ، بين الحين والحين ، للتوفيق بين مواقف المحافظين والليبراليين !

الا ان شيئا ليس في الحسبان ما يلبث ان يحدث فيقلب المعايير ويغير كل شيء . فقد اقتنت ابنة « رئيس الوزراء » طفلا يتيما من اطفال الهوم قتل بعض اترابها امه وهم يلهون بها . ويشب ذلك الطفل البشري في بيت الحاكم ، ورويدا رويدا يدفعه فضوله الانساني الموروث الى الاستكشاف والتعلم . ولحسن حظه وحظ نوعه ، تحتضنه ابنة الحاكم (كما تحتضن الطفلة دميتها او دبها اللعبة او كلبها) وهي تلقن دروسها اليومية من جهازها الاليكتروني . وبفضل الطوق الاليكتروني الموضوع في عنق الطفل ليتيح لها اعادته اليها كلما ذهب بعيدا ، بالتحكم البعيد ، يلقن الطفل الدروس اليكترونيا ، دون ان يفطن الى ذلك احد . وذات يوم يهرب بذلك الجهاز وتسوقه الصدفة الى نوعه البشري ، ويخبر القبيلة التي تعثر عليه احدى بناتها بأمر ذلك السحر الذي اتاهم به . وكما هي العادة يتصدى له ساحر القبيلة ويريد قتله ، لكن الغلبة تكون في النهاية للصبي الذي ما يلبث ان يقنع الجميع باستخدام الجهاز والتعلم منه . وفي النهاية يصنع المتخلفون سفن فضاء ويهبون ثائرين على الجورم الذين كانوا الى عهد قريب يرشونهم بالمبيدات الحشرية ويطاونهم بالاقدام كما نطأ الحشرات ، ويهربون من كوكبهم ، ويحاربونهم، وتوشك حضارة الجورم على الانهيار لولا ان يتغلب بعض عقلائهم (أو حمائمهم) على صقورهم ، ويعقدوا صلحا مع الهوم الذين باتوا انداداً لهم .

وبصرف النظر عما في الفيلم من جمال وامتاع ، خاصة في شطحات خيال الفنان وانطلاقاته غير المحدودة في تصور وابداع النباتات والحيوانات والمناظر الطبيعية الخرافية ، ذلك الابداع الذي واكبته ، وربما سبقته احيانا موسيقى الفيلم التي وضعها الان كوراجور ، قد يكون في « الكوكب الخرافي » اكثر من وجه شبه بكوكب آخر نعرفه وليس خرافيا انقسم من يقيمون على سطحه الان الى « جورم » عمالقة متقدمين ، و « هوم » متخلفين يتضاءلون من يوم الى يوم ، ويبادون فعلا ، بالجوع والفقر والجهل والتخلف والانسياق وراء « سحرة القبيلة » .

* * *

وعلى نفس درب الخرافة ، اخرجت ستوديوهات والت ديزني فيلما اشبه بحكايات جول فيرن ، بعنوان « جزيرة فوق سطح العالم »

ومرة اخرى يدور الفيلم حول مواجهة بين عالم متقدم وعالم قديم متخلف بل ومنسي من مئات السنين . والقصة بسيطة . رجل اعمال بريطاني ثري له ابن شاب مغامر ذهب الى منطقة قطبية في الشمال ، سعيا وراء اسطورة الجزيرة « التي تذهب اليها الحيتان لتموت » ، لكنه لم يعد . ويقرر الاب الثري قوي الشكيمة ان يذهب فيبحث عن ابنه الذي تراوده فيما يخصه مشاعر ذنب ، فلعله قسا عليه اكثر مما يجب في محاولة عنيدة تيجعله صوره متكررة منه .

وهكذا تبدأ رحلة اخرى من رحلات البحث عن عزيز مفقود. يشترك في هذه الرحلة ثالوث ذو مغزى : رجل الاعمال (الاب) ، والمهندس المخترع المبدع الصناع (الفرنسي غريب الاطوار خفيف الظل الذي يصمم منطادا عظيما ويصنعه ، في اخريات القرن الماضي) ، والعالم الاميركي الشجاع الذي يستدرجه الاب للاشتراك في الرحلة لانه متخصص في ميثولوجيات الشعوب الشمالية . والواقع ان كلا من المخرج وكاتب السيناريو لا يدعان المعنى الاساسي للمغامرة والثالوث القائم بها ـ وهو المعنى الذي يبدو وانه كان شغلهما الشاغل ـ يغيب عنك لحظة ، خشية ان يتوه منك احساس الانبهار بالروح الغربية المتصفة بالمبادأة والخيال والمغامرة والابتكار وقوة الشكيمة ، التي يجسدها الاب الثري « المنظم » الذي لا يثنيه عن عزمه شيء ويستقبل كل المخاطر في سبيل انجاح « مشروعه » مهما كان خرافيا محفوفا بالمهالك ، ويجسدها ايضا المهندس الفرنسي الذي يصنع المنطاد ويقوده عبر القارة والمحيطات والبحار الى اقصى الشمال ، ويجسدها ايضا العالم الاميركي بعلمه الغزير وتمكنه من تراث الماضي السحيق ، فيمثل ، بشبابه الاميركي وعلمه بالماضي تواصلا واستمرارا لتراث واحد نام باستمرار ومتطور الى آفاق لا تحد .

وفي قرية من قرى الاسكيمو يحط بها المنطاد باقصى الشمال ، يعثر الباحثون على « المتوحش الطيب » ، شاب من الاسكيمو كان رفيقا للابن المفقود ودليلا له في رحلته التي لم يعد منها ، فياخذه الاب معه في المنطاد بخديعة والمتوحش المسكين يموت خوفا من ذلك الطائر الاسطوري الذي استدرج الى احشائه فانطلق به محلقا في اجواز الفضاء .

وفي قرية من قرى الاسكيمو يحط بها المنطاد باقصى الشمال ، يعثر الباحثون الثلاثة على « المتوحش الطيب » ، شاب من الاسكيمو كان رفيقا للابن المفقود ودليلا له في رحلته التي لم يعد منها ، فياخذه الاب معه في المنطاد بخديعة والمتوحش المسكين يموت خوفا من ذلك الطائر الاسطوري الذي استدرج الى احشائه فانطلق به محلقا في اجواز الفضاء .

ويصل الاربعة بمنطادهم الى الجزيرة المنسية في قمة العالم ، ويكتشفون بها قبيلة منعزلة منسية من قبائل الفايكنغ اغلقت عليها ابواب عالمها الثلجي الصغير محتفظة بثقافتها القديمة ولغتها منذ مئات السنين ، ويعثرون على الابن المفقود هناك وقد وقع في هوى فتاة شقراء من فتيات القبيلة بارعات الحسن . وبعد مغامرات ، وكر وفر ، واصطدامات ـ مرة اخرى ـ بساحر القبيلة الذي يعتبر المنطاد طيرا جهنميا ونذير نحس وفناء ، يعود الاب الى عالم الحضارة ، منتصرا بابنه وفتاة الفايكنج الحسناء ، وبرفقته المهندس الفرنسي وفتى الاسكيمو المسكين الذي رأى في رحلته الاهوال ، تاركين وراءهم زميلهم العالم الاميركي ـ باختياره ـ رهينة لدى قبيلة الفايكنج التي جعلت ثمن حرية « المغيرين » في العودة الى عالمهم بقاء واحد منهم ضمانا لعدم افشاء سر وجود القبيلة في عالمها المنعزل ذاك ، فوق سطح العالم . وقد رحب العالم الاميركي بذلك لانه وجد في بقائه بين اولئك القوم فرصة ذهبية لاتتاح لاي عالم لدراسة تلك الثقافة الغابرة الكبرى التي ظلت حية ـ بمعجزة ـ منعزلة عن كل التاثيرات.

الاكلة الكبرى

ولكن ، اي الاثنين كان اسعد حظا في تلك القسمة بين عالمين ؟ الابن الذي اعاده ابوه الى عالم التقدم والحضارة وقد هدأ واستقر بعد مغامراته ، ووعد بأن ينخرط في « دنيا الاعمال » ليواصل « رسالة » أبيه ، أم العالم الاميركي الذي ترك دنيا التقدم والحضارة واختار ان يبقى مع اولئك الفايكنج الذين يعيشون في عالم جميل حقا لكنه قاس ووحشي ؟ يقول فيلم « الاكلة الكبرى » ان العالم الذي اختار الفايكنج كان الرابح بغير شك في تلك القسمة .

يحكي فيلم La grande bouffe قصة انتحار جماعي . لكنه انتحار فريد في نوعه : انتحار بالاكل والجنس . ولعله مما جعل ذلك الموضوع ممكنا ان الفيلم أوروبي ـ فرنسي ـ ايطالي مشترك وليس اميركيا او متاركا ككثرة من الافلام الهزيلة التي باتت تخرجها ستديوهات السينما البريطانية المحتضرة . وبطريقة ما يبدو الفن الوافد من القارة اكثر « تحضرا » واقدر على النظر ، بجراة حقيقية ، داخلا وخارجا . وهناك تيار جديد في السينما البريطانية يحاول باستماتة الخلاص من قبضة « الامريكانوسز » والنظر الى الاشياء بأعين اوروبية ، لكنه مازال وليدا مخلخل الساقين . بل ولقد امتدت المحاولة الى دور العرض ذاتها ، فظهرت بحي نوتينجهيل جيت سينما تجتهد في مواكبة تلك المحاولة ، فلا تعرض الا افلاما يمكن ان توصف بانها متحضرة ، اي نظيفة من السعار الاميركي والمستوى الاحط للسينما الاوروبية . وهناك بغير شك جمهور كبير لذلك النوع من السينما النظيفة . ولا نعني بالنظيفة المتزمتة أو المتالهة . ففيلم « الاكلة الكبرى » استمر عرضه شهورا بسينما كورزون رغم ان السيدة الفاضلة ماري وايتهوس ، حامية حمى الفضيلة في السينما البريطانية خرجت منه وهي « تفيء » على حد قولها للصحف ، وحاولت ايقاف عرضه بمختلف الطرق . ولعل للمسز وايتهوس عذرها ، فالفيلم وحشي ما في ذلك شك ، وكاشف في وحشيته الفظة . والمسز وايتهوس ، باخلاقياتها البورجوازية ذات الطابع البريطاني الفكتوري ، تمثل ، بغير شك ، « المؤسسة » في المجتمع البريطاني المأزوم ، وهي مؤسسة باتت تجد نفسها (بعد هدنة اجتماعية طويلة ومريحة امتدت طوال سني الرخاء والوفرة) محاصرة بين الازمة الاقتصادية الطاحنة التي تعاني منها بريطانيا كسائر بلدان الغرب الصناعي ، وبين ما أمست تلك الازمة تهدد بتفجيره من صراعات طبقية امكن احتواؤها حتى الان . ولقد حاولت المؤسسة في بريطانيا مؤخرا ان تعيد عقوبة الاعدام بعد ان تطهرت بريطانيا من وصمتها ، بحجة مقاومة « ارهاب الايرلنديين » وحماية ارواح « السادة المواطنين الابرياء » ، ولا نظن ان تلك ستكون المحاولة الاخيرة لتصعيد حملة « المحافظة على القانون والنظام » الى مرحلة ضارية يطل خلالها الجلاد على المجتمع البريطاني من جديد . ودائما تتواكب حملات « المحافظة على القانون والنظام » مع حمى « المحافظة على الفضيلة ومكارم الاخلاق » . ففي رسالة لناخب اميركي يريد ان يفهم ما يدور حوله » ، بعث بها الى باب « رسائل الى المحرر » باحدى المجلات الاميركية ، يقول ذلك الناخب : «ان جمهور الناخبين بولاية كاليفورنيا مطالبون الان لا باعادة عقوبة الاعدام فحسب ، بل وباخضاع انفسهم لاشد انواع الرقابة قسوة وصرامة بحجة المحافظة على اخلاق النشء. والطريف ان عددا من المحامين ورجال الدين الليبراليين قد فطنوا الى ما في تلك الحملة المستترة وراء الرغبة في المحافظة على الفضيلة من مخاطر ، فوصفوها بانها « خلو من العقل » و « ساذجة بدرجة تثير الحرج » وحثوا جمهور الناخبين على مقاومتها بشقيها . وفيما يخص الشق الذي دعي فيه الناخبون الى عقوبة الاعدام (على سبيل التحدي لقرارات المحكمة العليا للولايات ، والمحكمة العليا للبلاد التي وصفت الاعدام بانه عقوبة وحشية وغير عادية) يقول رئيس بوليس لوس انجليس ان حملة الدعوة الى اعادة تلك العقوبة تمثل بالنسبة للقائمين بها عملا من اعمال الحب المشبوب ! فلا عجب اذن ان السيدة الفاضلة ماري وايتهوس تخوض حملة صليبية ضد الافلام التي من

نـوع « الاكلة الكبـرى » ، بينما تخوض السيدة جيل نايت ، العضوة المحافظة بمجلس العموم ، حملة صليبيـة لاعادة عفويـة الموت . فالحملتان متكاملتان ، ووجهان لقضية واحدة ، قضية مؤسسه مذعورة مهددة تحاول أن تحكم قبضتها بكل الطرق على الرقـاب والعقول والنفوس .

ولقد يبدو مما قلناه في مقالنا السابق عن تشجيع التحلـل والتسيب في وسائل الترفيه ، وعملية التخدير الشامله المسممـره وتحويل العدوان ، باستخدام أفـلام الجنس والعنف ، وما نقـوله الآن عن حملات « اعادة المجتمع الى درب الانضباط ومكارم الاخلاق »، انه اما ان فهمنا للواقع الاجتماعي والانساني الذي نتناوله متضارب، واما ان تلك « المؤسسه » التي تتحدث عنها تتخبط وتناقض نفسهـا . لكنه لا هذا ولا ذاك . ولقد قلنا في المقال السابق أن هناك أساسـا يقومون كل يوم بحملات صليبية ضد الامتهان للنـوازع الانسـانية المتمثل في الانتاج « الفني » المكشوف والعري والجنس وكل ذلك » ، لكنه شتان ما بين افلام الاثارة والتخدير الرخيصة الفارغة فيهـا دور العرض باوروبا ، وبين الاعمال الفنية الحقيقية التـي تتنـاول الواقع الانساني بصراحة وتغوص بتعريته والغوص الى اعماقه . انـه نفس الفرق بين قصه جنسيه رخيصة لا هدف لها الا الاثارة ودغدغة الحواس ، وبين عمل فني يتناول الجنس بين ما يتناولـه من اوجه الواقع الانساني ، بعلم د . هـ . لورنس ، مثلا ، او بقلم هنـري ميلـر . والمحزن ان الهجوم الجدي الحقيقي الذي تشنـه المؤسسه ليس ضد افلام « البنات عندما يخلعن ثيابهن » او حتى افـلام كفيلم « بـواب الليل » ، بقدر ما هو موجه ، بكل ضراوة وصرامة ، الى الافلام التي من نوع « الاكلة الكبرى » . ولقد تضطر « المؤسسة » في المجتمعات الاوروبية المأزومة المعرضة لمخاطر اجتماعية تزداد فجـا وحدة من يوم ليوم ، الى انزال قبضتها ـ آسفة ـ على افلام العري والجنس الرخيص ، في معرض دفاعها عن « قيم الطبقة المتوسطة »التي تحاول عن طريق ترسيخها الان كقيم اساسية للمجتمع كله ان تصد غوائل التغير الآتي ، لكنهـا لن تعدم وسيلة او اخرى تحول عن طريقهـا العدوان وتزود الجماهير الخطرة بجرعة التخدير اليومية . وهناك كما قلنـا في المقال السابق امكانيات لا تحد في مجال تحويل الرياضة الى ما يشبه ساحات الالعاب الرومانية الدموية القديمة . وهناك ايضـا «اسابيع الكراهية» التي تستخدم فيها الحملات المركزة المكثفة عن طريق وسائل الاعلام والـ « تثقيف » الجماعـي ، التـي تنبأ بهـا اورول ، لتحويل المقت والعدوان الى « الاخرين ، الغرباء ، الاشرار ،المختلفين». وهناك بالفعل شيء كهذا يجري في بريطانيا وغيرها من بلدان اوروبا التي تشدد فيهـا « المؤسسة » قبضتهـا على المجتمع رويدا رويدا وبحذر ، استعدادا للطوارىء الخطرة التـي تبـدو نذرهـا منذ الان واضحـة . فجنبا الى جنب مع الحملات الشبيهـة بتلـك الحملةالتي بعث الناخب الاميركي الى مجلته رسالة حائرة في شانهـا ، حمـلات « المزيـد من القانون والنظام ، والمزيـد من الانضباط ومكارم الاخلاق»، تقوى وتتحدد بجلاء اكثر من يوم الى يوم حملة كراهية ضارية ضـد العرب بالذات ، « اولئك الاشرار الذيـن اخذوا اموال المتقدمين عـن طريق « الابتزاز النفطي » ،وبدأوا الان يحاولون شراء اقتصاديات الغرب بتلك الاموال التي ابتزوهـا منه » . وبطبيعـة الحال يركب اليهود تلك الموجـة جذلين ، ويزيدونهـا سعارا ، ويفيـدون منـها ، الا انهـا ـ اساسا ـ من قبيل ميكانزمـات الدفاع التي أسماهـا اورل باسابيع الكراهية .

والمشكلة ان الازمة التي تمر بهـا مجتمعات الغرب المتقدمة ليست ـ كما قد تبدو ـ اقتصاديـة سياسية اجتماعية فحسب . فهي كذلك وشيء اخر ، لان تلك المجتمعات تعاني من قبل مرحلتها الراهنة ازمـة ثقافيـة انسانية عميقـة وخطرة ،ساعدت سني الوفرة والرخاء التـي سبقت الازمة الراهنـة على تلطيف وقعها ، وان ظلت تعبر عن تمزقاتها وتوتراتها من خلال ما عرف بثورة الشباب وحركات الشباب وما الى ذلك من تململات لعبت دورهـا بغير شك في خلق مايات يعرف الان باسم « المجتمع المتسامح » الذي بانت «المؤسسة» تعتبره ـ بشكـل يزداد انضاحا ـ خطرا من المخاطر الرئيسية التي تتهدد « نظـام الاشياء » . تلك الازمة الثقافية (والتقافه هنا تعني « طريقه حياة شعب او مجموعة شعوب ») الانسانيه ، تمثلت اساسا في « الفجوة الثقافية » بين التقدم العلمي والمادي (التقني والصناعي) ، وبيـن التقدم اللامادي الانساني المتمثل في المعتقدات والنظم ، وما ترتب على تلـك الفجوة من احساس باحتقاد الاتجاه وافتقاد المغزى بشكل وضع الانسان الاوروبي ـ خاصه في غيبه الايمـان الديني ـ في مواجهـه خيار مهلك بين تقبل تقدم مادي مفرغ من المغزى ومحاولة اقتعال مغزى ما يبرره من خلال الانكباب على ما يتيحه من ضروب الترف المـادي والمتعه الحسية ،وجعل ذلك الانعماس « طريقه حياة » ومبررا للاستمرار في مثل ذلك التقدم ، واما التمرد على مثل ذلك التقدم (وبالتالي علـى القوى الاجتماعيه والانسقه الاقتصادية والسياسية التي اوجدته ويهمها ان تجعله متواصلا مطردا لا ينقطع) ومحاولة اخضاعه لمتطلبات الحياة الانسانية السوية التي تجعل التقدم وسيلة لا غاية ، وتضع القيـم الاخلاقيـه والجماليـه والروحية فوق التقدم كقيمة في ذاته ،وبالتالي: محاولة تغيير طريقه الحياه وانسقه السياسة والاقتصاد والعلاقـات الاجتماعيـة . ولقد امكن ـ كما قلنا ـ وضع ذلك كله في ثلاجة التبريد العميق ابان سني الرخاء والوفرة واطراد التقدم التقني ، واحتـواؤه، رغم هبات التمرد المتفرقة . اما الان فتواجه « المؤسسة » في البلـدان الصناعية الازمة الاقتصادية بكل مترتباتها الاجتماعية والسياسيـة ، وتواجـه ايضا تفجر تلـك الازمة الثقافية الانسانيـة التي اجلـت او سوفت مواجهتها حتى الان . وككل ظواهر الاجتماع والانسانيات ،توجد تلـك الازمـات جميعـا في حالة تشابك وتداخل وتبادل التأثير فيمـا بينها ،وتضطر المؤسسة الى المحاربة في اكثر من جبهـة في وقت معا. وهو مـا قد يفسر لنـا موقف العقلية التي تمثل المؤسسة من افـلام كفيلم « يا لك من رجل مجدود الحظ » ، اوفيلم « الاكلة الكبرى ».

والحقيقة ان « الاكلة الكبرى » فاضحة . فالفيلم يقول ان المجتمع الاوروبـي تحول الى مجتمع بطين مترهل غارق في الحسيات لا يعرف اي شيء يمكن ان يعمله بكل ثرائه و « تقدمه » الا ان يأكل ويمارس الجنس كالحيوان ثم (ولا ندري ان كان ذلك تنبؤا ام تقرير واقع) يموت غارقـا في فضلاتـه .

ابطال القصة جماعة من « الناجحين » : قاض ، ومخرج تليفزيوني، وطيار ، ورجل أعمال ، تربط بينهم مشارب تتمثل في حب الطعـام والجنس ، يجتمعـون بيـن الحين والحين في بيت ريفي جميـل لاحدهم ، يشبعـون فيه هواياتهم المفضلة . لكنهـم ـ بعـد تـكرار ـ يتملكهم الملل ، ويتسرب الملل الى كل سبل حياتهم ، فيقررون ان يكون اجتماعهم الاخير « عشاء اخيرا » رهيبا ، يبدأ فلا ينتهي الا بالموت. ويعدون لعشائهم الاخير بكفاءة اوربية عاليـة وتنظيم دقيق ، فيكدسون في مخازن البيت الريفي وثلاجاته مؤنـا تكفي لجيش بأكملـه ، ثم يذهبون الى البيت ويوصدون ابوابه عليهم بعد ان يصرفوا حارسه العجوز، بعد ان يصرف صاحب البيت « مندوبا من سفارة الصين » جاء فوجده بانتظاره ليقدم اليه هدية نادرة يرفضهـا بأدب لانه لا يريـد ان يكـون مدينـا بفضل لاحد او « ملتزمـا بشيء تجاه أحد » . وبعد انصراف الخفيـر والمبعوث الصيني ، يستقرون وينصرفون بكل جد الى مـا جاءوا لاجله ، وتبدأ الوليمة الكبرى ، والكل طهاة يتبارون في صنوف الطعام والحاوى التي يتفننون في ابتكارها واعدادها .

وتستمر الوجبة الشبيهة بوجبات الرومـان أياما ، ثم يتذكرون

الجنس ، فيستقدمون عددا من بائعات الهوى ليشاركنهم الوليمة . لكن الصدفة تسوق اليهم ايضا امراه لم تكن في الحسبان : مدرسة اطفال تصحب الصغار الذين تعلمهم في رحلة خلوية يتضمن برنامجها زيارة البيت الريفي الذي يعتبر ، بتحفه الثمينة ومعماره ، من معالم المنطقة . وتروق المراة في اعينهم فيخبرونها بسبب مجيئهم ويدعونها الى مشاركتهم الوليمه . وترحب المراة بالدعوة ، فلا تكاد تنتهي من مهمتها وتعيد تلاميذها الى المدرسه حتى تاتي مسرعة الى اصحابنا الاربعة ، وتشترك مع بائعات الهوى الاربع في الترفيه عنهم . وعندما تحس الفتيات بالتقزز من تلك الوليمة التي لا تنتهي وينسحبن غير قادرات على البقاء اكثر مما فعلن (بل وتقيء احداهن تقززا) ، تنفرد المربية الفاضلة بالفرسان الاربعة ، وتشاركهم الاكل كما تشاركهم الفراش . ويموت اول الفرسان من التخمة والافراط ، فيضعونه في ثلاجة ، بعد ان ينظفونه ويلبسونه ثيابا انيقة . ولما كان باب الثلاجة (غرفة تبريد كبيرة) زجاجيا ، فانهم يستطيعون ان يروه جالسا وراء الزجاج متخشبا « يرقبهم » وهم جلوس الى المائدة سادرين في وليمتهم الوحشية التي تحتدم اكثر من يوم الى يوم وكانهم يتعجلون النهاية . وفجاة يحس الطيار بالتقزز الذي احسته بائعات الهوى ، ويقرر الانصراف ، فيخرج الى الحديقة ويفتح بابها ، ويدفع سيارة قديمة وجدها بالجاراج وظل طيلة الوقت يختلس لحظات يذهب الى تلك السيارة فيها ويستغرق في اصلاح محركها. ويدير المحرك الذي يسمع صوته من داخل البيت وكانه صوت محرك طائرة توشك ان تنطلق محلقة . وفي الصباح يجدونه بالحديقة ، جالسا الى عجلة القيادة ، وقد مات متجمدا بعد ان غطاه الثلج طوال الليل ، فياخذونه الى الثلاجة ويجلسونه بجوار زميله ، وراء الباب الزجاجي. وبعد أيام من الوليمة التي لا تنقطع ، يموت المخرج التليفزيوني وقد خرج الى الشرفة ليشاهد « جمال الطبيعة » فينحط جالسا فجاة وهو يخرج ارياحا ذات اصوات مدوية ، ثم تفرغ احشاؤه ما بها ، ويموت غارقا في برازه وعلى وجهه ابتسامة طوباوية .

ولا يبقى الا القاضي والمدرسة . فيعترف لها باسرار حياته الحميمة ، ويحكي لها كيف تمكنت مربيته من ابقائه اعزب عن طريق قضاء حاجاته الجنسية بطريقة شاذة ، ثم يدور بين الاثنين حديث مبهم عن الزواج . ويلحق القاضي بزملائه الثلاثة وهو جالس في الحديقة صباحا يتناول طبقا هائلا من الحلوى المترجرجة على شكل ثديي امراة. ونهندم له المدرسة ثيابه ، وتلف دثارا من الصوف حول عنقه ، ثم تفتح باب الحديقة لسيارة نقل كبيرة يأخذ اثنان من العمال في تفريغ شحنتها الهائلة من اللحوم على ارض الحديقة .

انا اذكر

ففي مقابل البغاء السينمائي المتمثل في افلام العري والاثارة والقتل والذبح والشطارة والجنس التجاري يوجد ـ كما ترى ـ تيار اخر فيه عنف افظع ، وفيه عري وجنس ، لكنه « مشئوم » بالنسبة لمن يعملون ليل نهار على اعادة عقوبة الاعدام . بالنسبة لمن يحلمون « بدوام الحال » من خلال اعادة ترسيخ « قيم الطبقة المتوسطة » . وقد كتب الصحفي البريطاني المهاجر (الى اسبانيا) فردريك فورسايت (« ملف الاوديسا ») يقول : « لقد ولدت ونشأت لا في احضان ما كان يعرف وقتئذ بلاخجل باسم « الطبقة المتوسطة » ، فحسب ، بل في نقطة المركز من تلك الطبقة المتوسطة تماما ، في اسرة مجتهدة من اصحاب الحوانيت ، في مقاطعة كنت . وكان ذلك قبل ان يلوث مصطلح « الطبقة المتوسطة » على ايدي المتعصبين من رجال نقابات العمال ، ويصبح كلمة بذيئة وزرية بفضل مدعي التقدمية الذين لا عقول لهم من كتاب وسائل الاعلام . ولكم يبدو ذلك الوقت بعيدا ! كانه من قرن مضى ! واستطرد فورسايت قائلا ، لا فض فوه : « ولقد كانت للطبقه المتوسطه البريطانية سلسلة من المعايير اختارت تلك الطبقة ان تعيش بموجبها ، وبغير كبير ضجيج اختارت ان تلتزم بها . تلك المعايير قامت على مجموعة من القيم يمكن ان نجملها فيما يلي : على كل ان يجد ويعمل لان ذلك هو ما خلق كل منا لاجله ، وعلى كل ان يدفع ثمن ما يحصل عليه من الحياة ، ولا سبيل امامه ليحصل على ما لا يستطيع دفع ثمنه، وان يفي بوعوده ، ويسدد ديونه، وان يكون مؤدبا مع الغير لان ذلك يجعل الحياة الطف ، بالنسبة اليه والى الاخرين ، وان يعيش كل دون مستوى دخله حتى يستطيع ان يدخر « قرشا ابيض لليوم الاسود » . وقد قامت تلك المعايير ايضا على التمسك بالقيم الاخلاقية المنظمة للعلاقات الجسدية ، وهي قيم قد تبدو ـ بمعايير المجتمع المتسامح ـ صارمة ومتزمتة ، الا انها افضل من لا قيم على الاطلاق . وقامت اخلاقيات الطبقة المتوسطة ايضا على تأييد البوليس ، واستهجان الجرائم العنيفة ، والنظر بعين الجد الى الانتخابات .. والايمان بان المرء متى كان امينا مع الحكومة واعطاها ولاءه ، فان الحكومة ستستجيب بسلوك عادل تجاهه » ! والعم فورسايت هذا هو الذي وضع الكتاب المشهور « ملف الاوديسا » وقد اخرجته السينما فيلما من افلام الدعاية الصهيونية الصارخة ربط بطريقة بهلوانية ولا غرابة فيها بين هتلر والعرب ! والذي يدعو الى التأمل حقا ان « قيم الطبقة المتوسطة » هذه بعينها التي يتغنى بها السيد فورسايت ، ويحاول القائمون بحملة كاليفورنيا اعادة عقوبة الاعدام واعادة الرقابة معا في ربطة واحدة من خلالها ، تماما كما حاول اليمين البريطاني مؤخرا اعادة عقوبة الاعدام واعادة بريطانيا الى درب مكارم الاخلاق عن طريقها ، هي هي التي زحف اليمين في المانيا في اواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات وظل يزحف على ارضها الملغومة بالنفاق حتى اجلس هتلر على مقعد المستشارية .

وهناك كثيرون في اوروبا واعون بهذا التماثل الخطر بين ما حدث في اواخر العشرينيات المرحة وبين ما يحدث اليوم في اوروبا . ومن اولئك فلليني . ففي اخر افلامه ، « انا اذكر » «Amarcord» يستعيد ـ كما فعل في « المهرجين » و « روما » ، وبالحقيقة في سائر افلامه خلا قلة قليله منها كان ابرزها « الساتيريكون » الذي بناه على كتاب بترونيوس ـ يستعيد فلليني احداث حياته ويظل يقلبها ويمعن النظر فيها (وقد قال انه يصنع افلامه ، اساسا ، ليطرد من داخله ما يعتمل فيه من حواذات وما يسكنه من شياطين) . ويعطينا فلليني صورة حية لاسرته وصباه . وهي اسرة من الطبقة المتوسطة ، تحكمها اخلاقيات وقيم تلك الطبقة ، رغم ان ربها (الاب) اشتراكي. فذلك الاب يسوّد عيش الصبي طيلة الوقت بمحاولة صبه صبا في قالب تلك القيم والمعايير التي عددها فورسايت ، ربما مع فارق بسيط هو التباين بين المزاج البريطاني والمزاج الايطالي سريع الاشتعال. والمشكلة ان الصبي (فلليني) رغم انه لا يجحد سلطة الاب ، ولا ينكر عليه حقه في ان يحاول صبه في ذلك القالب ، يدرك من كل ما يجري حوله (مطاردة الاب للخادم الحسناء ، وجنون العم الجنسي الذي ادخله مستشفى المجاذيب) ان تلك المحاولة لا يمكن ان تنبني الا على درجة من التواطؤ ، والمسرحة صفيقة الوجه للاشياء ، والرياء يسلم في النهاية انه لا غنى عنها . غير ان الذي لا يعطن اليه الصبي في الفيلم ، ويركز عليه فلليني تركيزا خاصا ليلفت نظرنا اليه، ان تلك القيم وما تتطلبه من تواطؤ ومسرحة ورياء هي التي تتيح للفاشيين ان تكون لهم اليد العليا وان يضعوا كعوبهم على وجه الاب . وفي ذلك المدار الذي يجتر فيه فلليني اجترارا يبدو ان هذا اوانه « طريقة الحياة » التي جعلت ظهور الفاشية وازدهارها امرا محتوما لا ممكنا فحسب ، يعطينا فيلما قد لا يكون افضل افلامه الا انه من اكثرها ذكاء . حقيقة ان الحياة تبدو من بداية الامر الى نهايته اشبه بمزحة تكون في بعض مقاطعها غير مفهومة ، وفي بعضها

الاخر مبكية ، وحقيقة ان فلليني لا يبدو مستعدا لتفيل ايه اوهام عن جمال الناس او ما فيهم من خير ، فالجميع اقرب الى المهرجين ، لكنهم مهرجون مشؤومون بعض الشيء ، ورائحتهم خبيثة في مواضع كثيرة ، الا انه في النهاية يبدو كمن يهز كتفيه ويقول وهو يقلب كفيه « آه ! هذه هي الحياة ! وهؤلاء هم الناس ! » . ومع ذلك فانه لا يتقزز منهم أو يحتقرهم،بل تحس لديه محبة مفتاظة من غبائهم الذي يجعلهم ـ مثلا ـ ينسافون كالخراف وراء وجه الدوتشي الكريمة .

وفي خاتمة المطاف يعوضهم عن كل سخفهم وغبائهم بالحلم .الحلم الذي في اعماق كل منهم ، صغيرا كان ام كبيرا ، الذي نراه في اعينهم وعلى ملامح وجوههم في مشهد من اجمل مشاهد الفيلم الناطقة بلمسة الاستاذ بحق ، عندما تخرج البلدة عن بكرة ابيها في القوارب الى عرض البحر ، ليقضي الجميع نهارا كاملا وجزءا طويلا من الليل في انتظار مرور « عابرةمحيطات » لايدري احد قادمة من اين او ذاهبة الى اين ، لكنها ـ عندما تهل اخيرا ، فتطلع على اولئك المنتظرين المشتاقين من قلب الظلمة وانوارها تتألق وانغام موسيقاها تأتي من بعيد كنغمة من حلم ـ تبعث حياة اخرى تجيش في كل القلوب لمدى لحظة فتجعلها قلبا واحدا ضفليا مليئا بالاحلام والاشواق التي لا تحد .

يبدأ الفيلم بحفل « ماردي جرا » يحرق فيه اهل البلدة «ساحرة الشتاء » احتفاء بمقدم الربيع ، وينتهي بحفل زواج تضيع منه كل بهجة في قبضة عاصفة رعدية ، وبين البداية والنهاية بلدة تبدو اشبه بخشبة مسرح ريفي خائب بعض الشيء تقطع تهريجيته بين الحين والحين لمسات شاعرية كمشهد ذلك الطاووس الابق الذي يظهر في ميدان البلدة الرئيسي ، يتحدى الرتابة ، بقدر ما يتحدى الثلج الناصع المتساقط بذيله الباذخ ، او مشهد عابرة المحيط ، او مشهد الجد العجوز الذي تاه لسبب غير مفهوم في ضباب الصباح الباكر امام منزله ووقف يغمغم « ان كان هذا هو الموت ، فان الامر لا يساوي قلامة ظفر ! » من خلال النسيج المتشابك للمسرحة والتهريج وغنائية المشاهد الشاعرية يغمسنا فلليني في واقع قليل الالوان لا مجاملة فيه تتسع دائرته من داخل بيت الاسرة ليتكرر باكثر من شكل في شوارع البلدة وفصول المدرسة والمهرجانات الفاشية . وفي النهاية تحس ان هؤلاء الناس جميعا لا كبير ضر فيهم ، لكن مشكلتهم انهم لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم . والادهى انهم يعرفون ذلك ، بطريقة مبهمة، ويرتعبون منه ، ويدفعهم ارتعابهم الى اتيان كل تلك الاشياء المجانية المجنونة بعض الشيء ، والمؤذية لهم جميعا .. كحكاية « قيم الطبقة المتوسطة » .

ويبدو ان برناردو برتولوتشي (« الثورة » ، و « الشريك » ، و « الانسان المطابق » ، واخيرا « التانجو الاخير في باريس »)لم تعجبه رؤية فلليني ، فقرر ان يحاجيها بفيلمه الجديد « ١٩٠٠ » ،او « القرن العشرون » . وسنرى ما يقوله فيه عندما يعرض الفيلم في لندن . اما ما يقوله برتولوتشي من الآن فهو ان فيلمه الجديد يقدم « تحليلا ماركسيا للواقع الايطالي السياسي والسيكولوجي في الماضي (ماضي القرن) والحاضر . وسنرى ان كان سيقدم ـ حقيقة ـ تحليلا ايديولوجيا لذلك الواقع ، ام سيحاول ـ كدأبه ـ ان يسقط حواذاته الخاصة ، التي يبدو ان اللواط على رأسها ، على لوحة اجتماعية تاريخية مصورة من وجهة نظره للواقع الذي يتناوله .

لنـــدن

الفكر العربي
في معركة النهضة
تأليف الدكتور انور عبدالملك

« هذا الكتاب موجه في المقام الاول الى قطاع محدد من جمهور القراء في العالم العربي ، هو قطاع الجيل الجديد من شبابنا العربي في كل مكان ، شباب الريف والمدن ، شباب الفكر والعمل ، شباب الانتاج والعلم والسلاح . ربما يجد فيه بعض رجال الفكر والعمل من جيلنا ـ الذي كان « على موعد مع القدر » ـ اسهاما في نهضتنا الحضارية . نقول « البعض » ،اذ ان منهج التنقيب عن مستقبل الفكر العربي في عصر النهضة الحضارية ، وهو المنهج النابع من تغيير الاطار المعرفي ـ وهو جوهر عملنا النظري القائم منذ ١٩٥٩ ، والمرتقب، الا وهو تجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب ـ نقول : ان هذا المنهج وذلك التجديد النظري يمتان على وجه التحديد الى مرحلة الثورة الوطنية التقدمية وغايتها النهضة الحضارية ، وهي مرحلة جديدة حقا على المفاهيم والتقاليد الفكرية الموروثة للاجيال السابقة من حركتنا الوطنية المتأقلمة في اغلب الاحيان في اجواء ثقافية ـ فكرية استشراقية، اوامية، او سلفية .

وهو كتاب يتصدى للاجابة على سؤال مركزي في تحركنا العربي المعاصر ، الا وهو : كيف يمكن ان نقيم علاقة جذرية ، عضوية ، متصلة ، بين تحركنا الوطني التحرري المتجه الى الثورة الاجتماعية والهدف الاشتراكي من ناحية ، وبين اقامة فلسفة تواكب هذا التحرك الذي فرض نفسه على العالم اجمع ، تكون ،على وجه التحديد ، فلسفة النهضة الحضارية في مصر والعالم العربي ؟ » . ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الآداب — الثمن ٨٥ قرشا لبنانيا